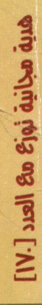
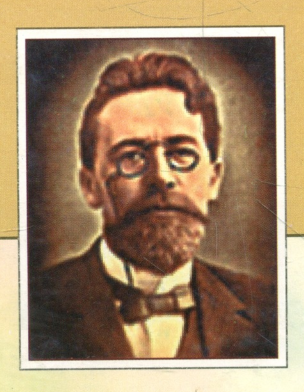
كتاب الثقافة الجديدة [٦]
أغسطس ٢٠٠٤





قصص من تشيكوف

إبداع متجدد

ترجمة

د. أبو بكر يوسف

الهيئة العامة لقصور الثقافة

كتاب الثقافة الجديدة

(٦)

اغسطس ٢٠٠٤

قصص من تشيكوف

إبـــداع متجـــدد

ترجمـــة

د. أبو بكر يوسف

هدية مجانية توزع مع العدد (١٧٠)

كتاب الثقافة الجديدة

(٦)

أغسطس ٢٠٠٤

قصص من تشيكوف
(إبـداع متجـــدد)
ترجمة
د. أبو بكر يوسف

• رقم الإيداع: ١٠٤٩٠/ ٢٠٠٤

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: ٣٩٠٤٠٩٦

فرحة

كانت الساعة الثانية عشرة ليلا .

اندفع ميتيا كولداروف الى شقة والديه منفعلا منفوش الشعر ، ومضى يروح ويجيء بسرعة فى جميع الغرف . وكان الوالدان قد أويا الى الفراش . ورقدت اخته فى سريرها تقرأ آخر صفحة فى الرواية . اما اخوته التلاميذ فكانوا نائمين .

وقال والداه بدهشة :

ـــ من اين جئت ؟ ماذا بك ؟

ـــ أوه ، لا تسألا ! لم أتوقع ابدا ذلك ! كلا ، لم أتوقعه ابدا ! انه . . انه غير معقول !

وقهقه ميتيا ، وجلس فى الفوتيل وهو لا يقوى على الوقوف من فرط السعادة .

ـــ هذا غير معقول ! لا يمكن ان تتصوروا ! انظروا !

قفزت اخته من الفراش ، واسدلت على كتفيها البطانية واقتربت من أخيها . واستيقظ التلاميذ .

ـــ ماذا بك ؟ انك شاحب جدا !

ـــ هذا من الفرحة يا ماما ! فالآن أصبحت روسيا كلها تعرفنى ! كلها ! من قبل لم يكن احد غيركم

يعرف انه يوجد فى الدنيا المسجل الاعتبارى * ديمترى كولداروف ، اما الآن فروسيا كلها تعرف ذلك ! ماما ! يا الهى !

قفز ميتيا ، وجرى فى غرف البيت ثم عاد الى مجلسه .

— ولكن ماذا حدث ؟ هلا أوضحت لنا !

— انكم تعيشون كالوحوش البرية ، لا تقرأون الصحف ، ولا تهتمون ابدا بما ينشر ، بينما فى الجرائد اشياء رائعة ! فاذا حدث شىء يصبح معروفا على الفور ، ولا يخفى ابدا ! كم انا سعيد ! يا الهى ! الجرائد لا تكتب الا عن مشاهير الناس فقط ، واذا بهم فجأة يكتبون عنى !

— ماذا تقول ! اين ؟

امتقع الأب . ونظرت الأم الى الايقونة ورسمت علامة الصليب . وقفز التلاميذ فى قمصان النوم القصيرة فقط واقتربوا من أخيهم الاكبر .

— نعم ! كتبوا عنى ! الآن تعرفنى روسيا كلها ! خبئى يا ماما هذا العدد واحتفظى به للذكرى ! سوف نقرأه احيانا . انظروا !

وأخرج ميتيا من جيبه عددا من جريدة وأعطاه لأبيه وهو يدس اصبعه فى موضع محاط بخط قلم ازرق .

— اقرأ !

وارتدى الوالد النظارة .

---

* المسجل الاعتبارى رتبة من ادنى الرتب المدنية فى روسيا القيصرية . المعرب .

— هيا اقرأ !

ونظرت الأم الى الايقونة ورسمت علامة الصليب . وتنحنح الأب وشرع يقرأ :

— «فى ٢٩ ديسمبر ، فى الساعة الحادية عشرة مساء كان المسجل الاعتبارى ديمترى كولداروف . . .

— هل رأيتم ؟ هل رأيتم ؟ اكمل ! . .

— . . . كان المسجل الاعتبارى ديمترى كولداروف خارجا من الحانة الواقعة فى شارع مالايا برونّايا ، فى منزل كوزيخين ، وهو فى حالة سكر . . .

— شربت مع سيميون بتروفتش . . . وصفوا حتى أدق التفاصيل ! اكمل ! بعده ! اسمعوا ! . .

— وهو فى حالة سكر فزلت قدمه وسقط تحت حصان حوذى كان واقفا هنا ، ويدعى ايفان دروتوف من قرية دوريكينا بناحية يوخنوف . وذعر الحصان فخطا من فوق كولداروف وسحب من فوقه الزحافة التى كان جالسا فيها ستيبان لوكوف التاجر من الدرجة الثانية بموسكو ، وانطلق عبر الشارع وتمكن البوابون من الامساك به . ونقل كولداروف الذى كان فاقد الوعى الى قسم الشرطة حيث اجرى له كشف طبى . واتضح ان الضربة التى تلقاها فى مؤخرة رأسه . . .

— انها من اصطدامى بذراع الزحافة يا بابا . اكمل ، اقرأ بعد ذلك !

— . . . التى تلقاها فى مؤخرة رأسه تعتبر من الضربات الخفيفة . وقد تم تحرير محضر بالواقعة . واجرى للمصاب اسعاف أولى . . .»

— نصحونى بان أبلل مؤخرة رأسى بالماء البارد .

حسنا ، هل رأيتم ؟. هه ؟ هكذا ! الخبر الآن ينتشر فى روسيا كلها ! هات الجريدة !

وخطف ميتيا الجريدة وطواها ، ودسها فى جيبه .

— سأسرع الى آل هكاروف لأريها لهم . . . ينبغى ان أريها ايضا لآل ايفانيتسكى ، ولنتاليا ايفانوفنا ، ولأنيسيم فاسيليتش ! انا ذاهب ! وداعا !

وارتدى ميتيا العمرة ذات الشريط المعقود وانطلق الى الشارع منتشيا فرحا .

١٨٨٣

المغفلة

منذ ايام دعوت الى غرفة مكتبي مربية اولادى يوليا فاسيليفنا لكى أدفع لها حسابها .

قلت لها :

— اجلسى يا يوليا فاسيليفنا . هيا نتحاسب . انت فى الغالب بحاجة الى النقود ، ولكنك خجولة الى درجة انك لن تطلبيها بنفسك . . . حسنا . . . لقد اتفقنا على ان ادفع لك ثلاثين روبلا فى الشهر . . .

— أربعين . . .

— كلا ، ثلاثين . . هذا مسجل عندى . . كنت دائما أدفع للمربيات ثلاثين روبلا . حسنا ، لقد عملت لدينا شهرين . . .

— شهرين وخمسة ايام . . .

— شهرين بالضبط . . هكذا مسجل عندى . . اذن تستحقين ستين روبلا . . . نخصم منها تسعة ايام آحاد . . فانت لم تعلمى كوليا فى ايام الآحاد بل كنت تتنزهين معه فقط . . ثم ثلاثة ايام اعياد .

تضرج وجه يوليا فاسيليفنا ، وعبثت اصابعها باهداب الفستان ولكن . . لم تنبس بكلمة !

— نخصم ثلاثة اعياد ، اذن المجموع اثنا عشر روبلا . . وكان كوليا مريضا اربعة ايام ولم تكن دروس . . كنت تدرسين لفاريا فقط . . . وثلاثة ايام كانت اسنانك تؤلمك فسمحت لك زوجتي بعدم التدريس بعد الغداء . . اذن اثنا عشر زائد سبعة — تسعة عشر . . نخصم ، الباقي . . هم . . واحد واربعون روبلا . . مضبوط ؟

احمرت عين يوليا فاسيليفنا اليسرى وامتلأت بالدمع ، وارتعش ذقنها . وسعلت بعصبية وتمخطت ، ولكن . . لم تنبس بكلمة !

— قبيل رأس السنة كسرت فنجانا وطبقا . نخصم روبلين . . الفنجان أغلى من ذلك ، فهو موروث ، ولكن فليسامحك الله ! علينا العوض . . نعم ، وبسبب تقصيرك تسلق كوليا الشجرة ومزق سترته . . نخصم عشرة . . وبسبب تقصيرك ايضا سرقت ألخادمة من فاريا حذاء . ومن واجبك ان ترعى كل شيء ، فانت تتقاضين مرتبا . وهكذا نخصم ايضا خمسة . . . وفي ١٠ يناير اخذت مني عشرة روبلات .

فهمست يوليا فاسيليفنا :

— لم آخذ !

— ولكن ذلك مسجل عندي !

— طيب ، ليكن . .

— من واحد واربعين نخصم سبعة وعشرين . . الباقي اربعة عشر . . .

امتلأت عيناها الاثنتان بالدموع . . . وطفرت حبات العرق على انفها الطويل الجميل . يا للفتاة المسكينة !

وقالت بصوت متهدج :

— أخذت مرة واحدة . . أخذت من حرمكم ثلاثة روبلات . . لم آخذ غيرها . .

— حقا ؟ انظر ، وانا لم اسجل ذلك ! نخصم من الاربعة عشر ثلاثة ، الباقي احد عشر . . ها هى نقودك يا عزيزتى ! ثلاثة . . ثلاثة . . ثلاثة . . واحد ، واحد . . تفضلى !

ومددت لها احد عشر روبلا . . فتناولتها ووضعتها فى جيبها باصابع مرتعشة . وهمست :

— Merci * .

فانتفضت واقفا واخذت أروح واجىء فى الغرفة . واستولى علىّ الغضب .

سألتها :

— merci على ماذا ؟

— على النقود . . . .

— يا للشيطان ، ولكنى نهبتك ، سلبتك ! لقد سرقت منك ! فعلام تقولين merci ؟

— فى اماكن اخرى لم يعطونى شيئا . . .

— لم يعطوك ؟ ! ليس هذا غريبا ! لقد مزحت معك ، لقنتك درسا قاسيا . . سأعطيك نقودك ، الثمانين روبلا كلها ! ها هى فى المظروف جهزتها لك ! ولكن هل يمكن ان تكونى عاجزة الى هذه الدرجة ؟ لماذا لا تحتجين ؟ لماذا تسكتين ؟ هل يمكن فى هذه الدنيا

---

* مرسى ، شكرا . المعرب

الا تكونى حادة الانياب ؟ هل يمكن ان تكونى مغفلة الى هذه الدرجة ؟

ابتسَمَتْ بعجز فقرأتُ على وجهها : «يمكن !» .

سألتها الصفح عن هذا الدرس القاسى وسلمتها ، لدهشتها البالغة ، الثمانين روبلا كلها . فشكرتنى بخجل وخرجت . . . وتطلعت فى اثرها وفكرت : ما أسهل ان تكون قويا فى هذه الدنيا !

١٨٨٣

وفاة موظف

وفاة موظف

ذات مساء رائع كان ايفان ديمتريفيتش تشرفياكوف ، الموظف الذى لا يقل روعة ، جالسا فى الصف الثانى من مقاعد الصالة ، يتطلع فى المنظار الى «اجراس كورنيفيل» . وراح يتطلع وهو يشعر بنفسه فى قمة المتعة . وفجأة . . . وكثيرا ما تقابلنا «وفجأة» هذه فى القصص . والكتّاب على حق ، فما احفل الحياة بالمفاجآت ! وفجأة تقلص وجهه ، وزاغ بصره ، واحتبست انفاسه . . . وحول عينيه عن المنظار وانحنى و . . . . أتش ! ! ! عطس كما ترون . والعطس ليس محظورا على احد فى اى مكان . اذ يعطس الفلاحون ، ورجال الشرطة ، بل وحتى احيانا المستشارون السريون . الجميع يعطس . ولم يشعر تشرفياكوف باى حرج ، ومسح انفه بمنديله ، وكشخص مهذب نظر حوله ليرى ما اذا كان قد ازعج احدا بعطسه . وعلى الفور احس بالحرج . فقد رأى العجوز الجالس امامه فى الصف الاول يمسح صلعته ورقبته بقفازه بعناية ويدمدم بشىء ما . وعرف تشرفياكوف فى شخص العجوز الجنرال بريزجالوف الذى يعمل فى مصلحة السكك الحديدية

وقال تشرفياكوف لنفسه : «لقد بللته . انه ليس رئيسى ،

بل غريب ، ومع ذلك فشىء محرج . ينبغى ان اعتذر» .

وتنحنح تشرفياكوف ومال بجسده الى الامام وهمس فى اذن الجنرال :

— عفوا يا صاحب السعادة ، لقد بللتكم . . . لم اقصد . .

— لا شىء ، لا شىء .

— استحلفكم بالله العفو . اننى . . . لم اكن اريد !

— اوه ، اسكت من فضلك ! دعنى اصغى !

واحرج تشرفياكوف فابتسم ببلاهة ، وراح ينظر الى المسرح . كان ينظر ولكنه لم يعد يحس بالمتعة . لقد بدأ القلق يعذبه . واثناء الاستراحة اقترب من بريزجالوف وتمشى قليلا بجواره ، وبعد ان تغلب على وجله دمدم :

— لقد بللتكم يا صاحب السعادة . . . اعذرونى . . اننى لم اكن اقصد ان . . .

فقال الجنرال :

— اوه كفاك ! . انا قد نسيت وانت ما زلت تتحدث عن نفس الامر !

وحرك شفته السفلى بنفاد صبر .

وقال تشرفياكوف لنفسه وهو يتطلع الى الجنرال بشك : «يقول نسيت بينما الخبث يطل من عينيه . ولا يريد ان يتحدث . ينبغى ان اوضح له اننى لم اكن ارغب على الاطلاق . . . وان هذا قانون الطبيعة ، والا ظن اننى اردت ان ابصق عليه . فاذا لم يظن الآن فسيظن فيما بعد ! . .»

وعندما عاد تشرفياكوف الى المنزل روى لزوجته ما بدر عنه من سوء تصرف . وخيل اليه ان زوجته نظرت الى الامر

باستخفاف ، فقد جزعت فقط ، ولكنها اطمأنت عندما علمت ان بريزجالوف «غريب» .

وقالت :

— ومع ذلك اذهب اليه واعتذر . والا ظن انك لا تعرف كيف تتصرف فى المجتمعات !

— تلك هى المسألة ! لقد اعتذرت له ، ولكنه . . . كان غريبا . . . لم يقل كلمة مفهومة واحدة . ثم انه لم يكن هناك متسع للحديث .

وفى اليوم التالى ارتدى تشرفياكوف حلة جديدة ، وقص شعره ، وذهب الى بريزجالوف لتوضيح الامر . . وعندما دخل غرفة استقبال الجنرال رأى هناك كثيرا من الزوار ورأى بينهم الجنرال نفسه الذى بدأ يستقبل الزوار . وبعد ان سأل عدة اشخاص رفع عينيه الى تشرفياكوف . فراح الموظف يشرح له :

— بالامس فى «اركاديا» لو تذكرون يا صاحـــب السعادة عطست و . . بللتكم عن غير قصد . . اعذر . . .

— يا للتفاهات . . الله يعلم ما هذا ! — وتوجـه الجنرال الى الزائر التالى — ماذا تريدون ؟

وفكر تشرفياكوف ووجهه يشحب : «لا يريد ان يتحدث . اذن فهو غاضب . . . كلا ، لا يمكن ان ادع الامر هكذا . . سوف اشرح له . . .»

وبعد ان انهى الجنرال حديثه مع آخر زائر واتجه الى الغرفة الداخلية ، خطا تشرفياكوف خلفه ودمدم :

— يا صاحب السعادة ! اذا كنت اتجاسر على ازعاج سعادتكم فانما من واقع الاحساس بالندم ! . لم اكن

اقصد ، كما تعلمون سعادتكم !

فقال الجنرال وهو يختفى خلف الباب :

— انك تسخر يا سيدى الكريم !

وفكر تشرفياكوف : «اية سخرية يمكن ان تكون ؟ ليس هنا اية سخرية على الاطلاق ! جنرال ومع ذلك لا يستطيع ان يفهم ! اذا كان الامر كذلك فلن اعتذر بعد لهذا المتغطرس . ليذهب الى الشيطان ! سأكتب له رسالة ، ولكن لن آتى اليه . اقسم لن آتى !»

هكذا فكر تشرفياكوف وهو عائد الى المنزل . ولكنه لم يكتب للجنرال رسالة . فقد فكر وفكر ولم يستطع ان يدبج الرسالة . واضطر فى اليوم التالى الى الذهاب بنفسه لشرح الامر .

ودمدم عندما رفع اليه الجنرال عينين متسائلتين :

— جئت بالامس فأزعجتكم يا صاحب السعادة ، لا لكى اسخر منكم كما تفضلتم سعادتكم فقلتم . بل كنت اعتذر لانى عطست فبللتكم . . . ولكنه لم يدر بخاطرى ابدا ان اسخر . وهل اجسر على السخرية ؟ فلو رحنا نسخر ، فلن يكون هناك احترام للشخصيات اذن . . .

وفجأة زأر الجنرال وقد اربد وارتعد :

— اخرج من هنا ! !

فسأل تشرفياكوف هامسا وهو يذوب رعبا :

— ماذا ؟

فردد الجنرال ودق بقدمه :

— اخرج من هنا ! !

وتمزق شيء ما فى بطن تشرفياكوف . وتراجع الى

الباب وهو لا يرى ولا يسمع شيئا ، وخرج الى الشارع وهو يجرجر ساقيه . . . وعندما وصل آليا الى المنزل استلقى على الكنبة دون ان يخلع حلته . . . . ومات .

١٨٨٣

دموع لا يراها العالم

ـــ آه يا سادة يا كرام لو نتعشى الآن . . .

قال القائد العسكرى المقدم ريبروتيوسوف ، وهو رجل طويل نحيف كعمود البرق ، وكان خارجا من النادى مع جماعة من أصحابه ذات ليلة مظلمة من شهر أغسطس . ومضى يقول :

ـــ فى المدن المحترمة ، مثل ساراتوف ، يمكنك دائما أن تتعشى فى النادى ، أما هنا ، فى مدينتنا العفنة تشيرفيانسك ، فبخلاف الفودكا والشاى بالذباب لا تحصل على شىء . ليس هناك ما هو اسوأ من أن تشرب ولا تجد ما تمز به !

ـــ نعم ، لا بأس الآن بشىء ما ، هكذا يعنى . . . ـــ أمَّن مفتش المعهد الدينى ايفان ايفانيتش دفويتوتشيف وهو يلتف بمعطفه الأصفر اتقاء للريح ـــ الساعة الآن الثانية ، والحانات مغلقة ، آه لو يعنى فسيخة مملحة . . أو فطر مخلل . . أو يعنى شىء ما هكذا . . .

وحرك المفتش اصابعه فى الهواء ، ورسم على وجهه أكلة ، يبدو أنها شهية جدا ، لأن كل من نظروا الى وجهه لعقوا شفاههم . وتوقفت الجماعة عن السير وأخذت تفكر .

وفكرت طويلا ، ولكن تفكيرها لم يتفتق عن شيء يؤكل . واضطرت الى الاكتفاء بالأحلام فقط .

وتنهد نائب مأمور المركز بروجينا — بروجينسكي وقال :

— يا له من ديك رومي عظيم ذلك الذى أكلته بالأمس عند جولويسوف . . . بالمناسبة يا سادة ، ألم يزر أحد منكم وارسو ؟ هناك يفعلون هكذا . . يأخذون سمك الشبوط العادى ، وهو حي . . يتلوى ، ويلقون به فى اللبن . . . ويظل هذا الوغد يعوم فى اللبن يوما ، وبعد ذلك يغمسونه فى القشدة ويقلونه فى مقلاة تطشطش . . وعند ذلك لا حاجة يا أخى لأناناسك ! أى والله . . خاصة اذا شربت كأسا أو كأسين . . تأكل ولا تحس . كأنك فى غيبوبة . . . الرائحة وحدها تجنن ! . .

فأردف ريبروتيوسوف بنبرة مشاركة قلبية :

— فاذا اضفت اليه خيارا مملحا . . . عندما كنا معسكرين فى بولندا كان يحدث أن تحشر فى جوفك حوالى المائتين من البيلمينى مرة واحدة . . . تملأ بها طبقا كاملا ، وترش عليها الفلفل والشبت والبقدونس و . . . لا أستطيع ان أعبر لكم !

وتوقف ريبروتيوسوف فجأة واستغرق فى التفكير . تذكر حساء السمك الذى أكله عام ١٨٥٦ فى دير الثالوث الأقدس . وكانت ذكرى هذا الحساء لذيذة الى درجة ان القائد العسكرى شم فجأة رائحة السمك وحرك فكيه لا اراديا ولم يلحظ تسرب الوحل الى خف حذائه .

وقال :

— كلا ، لا أستطيع ، لا أستطيع أن أصبر اكثر !

سأذهب الى البيت وامتع نفسى . اسمعوا يا سادة ، فلتأتوا معى ! أى والله ! لنشربَ كأسا ، ونمز بما رزقنا به الله . خيار ، مرتدلة . . ونشعل السماور . . هه ؟ لنمز ، ونتحدث عن الكوليرا ، ونتذكر ما مضى . . . زوجتى نائمة الآن ، لن نوقظها . . سنجلس فى هدوء . . . هيا بنا !

ولا حاجة لوصف الاعجاب الذى قوبل به هذا العرض . يكفى فقط أن أقول أنه لم يكن لدى ريبروتيبوسوف فى أى وقت مضى مثل هذه الكثرة من الخيِّرين كما كان لديه فى هذه الليلة .

— سأقطع أذنيك . . . — قال القائد العسكرى لجندى المراسلة وهو يدخل بالضيوف الى غرفة الجلوس المظلمة — قلت لك ألف مرة يا حيوان أن تشعل البخور عندما تنام فى المدخل . اذهب يا غبي واشعل السماور ، وقل لايرينا أن تحضر الـ . . . أن تحضر من القبو خيارا وفجلا . . ونظف بعض الفسيخ . . وقطِّع بصلا أخضر ورش عليه شبتا هكذا . . يعنى . . وقطِّع البطاطس دوائر . . والبنجر أيضا . . وكل هذا صب عليه الخل والزيت ، يعنى ، والمسطردة أيضا . . . ورش الفلفل فوقه . . باختصار طبق مزة . . مفهوم ؟

وحرك ريبروتيبوسوف أصابعه مصورا الخلطة ، وأضاف الى المزة بتعابير وجهه ما لم يستطع أن يضيفه بالكلمات . . وخلع الضيوف أخفافهم ودلفوا الى القاعة المظلمة . وأشعل صاحب البيت عود ثقاب ففاحت رائحة الكبريت ، وأضاء الجدران المزينة بهدايا مجلة «نيفا» ومناظر البندقية وصورتين للكاتب لاجيتشنيكوف وجنرال ما بعينين مدهوشتين للغاية .

— حالا ، حالا . . . — همس رب الدار وهو يوسع

المنضدة بهدوء . ــ سأعد المائدة ثم نجلس . . ماشا زوجتى مريضة اليوم . . ارجو المعذرة اذن . . عندها مرض نسائى ما . . . الدكتور جوسين يقول ان ذلك بسبب أكل الصيام . . جائز جدا ! ولكنى أقول لها : «يا روحي ، ليست المسألة فى الأكل ! ليست المسألة فيما يدخل الفم بل فيما يخرج من الفم . . . فأنت تأكلين أكل الصيام ، ولكنك عصبية كما كنت . . . وبدلا من أن تتعبى جسدك ، الأفضل ألا تغضبى ، وألا تتفوهى بكلمات . . .» ولكنها لا تريد حتى أن تسمع ! تقول : «لقد تعودنا على ذلك منذ الصغر» .

ودخل جندي المراسلة ، ومد عنقه ، وأسر بشىء ما فى أذن رب الدار . . ولعّب ريبروتيوسوف حاجبيه . . .

ودمدم بصوت كالخوار :

ــ هم . . نعم . . هم . . هكذا . . عموما بسيطة . . حالا سأعود . . دقيقة واحدة . . ماشا أوصدت القبو والخزائن فى وجه الخدم واخذت المفاتيح . ينبغى أن اذهـــب لاحضارها . . .

وصعد ريبروتيوسوف على اطراف أصابعه ، وفتح الباب بهدوء ، ودخل على زوجته . . . كانت نائمة .

وقال وهو يقترب بحذر من السرير :

ــ يا ماشا ! استيقظى دقيقة واحدة يا ماشا !

ــ من ؟ أهو أنت ؟ ماذا تريد ؟

ــ أنا يا ماشنكا بخصوص الـ . . . اعطينى يا ملاكى المفاتيح ولا تقلقى . . . نامى مطمئنة . . أنا سأهتم بهم . . سأعطى كلا منهم خيارة ، ولن أبدد اكثر من ذلك شيئا . . اقسم لك . . . هناك دفويتوتشيف ، اتدرين ، وبروجينا ــ

بروجينسكى وآخرون . . . كلهم أشخاص رائعون . . . محترمون في المجتمع . . . أتدرين بروجينسكى يحمل وسام فلاديمير من الطبقة الرابعة . . . أوه ، كم يحترمك . . .

ـــ أين سكرت الى هذا الحد ؟

ـــ ها أنت تغضبين . . . يا سلام عليك . . . سأعطى كلا منهم خيارة ، وهذا كل شيء . . وسينصرفون . . . أنا سأهتم بهم ولن نزعجك ابدا . . نامى يا لعبتى . . هه ، وكيف صحتك ؟ هل جاء جوسين فى غيابى ؟ انظرى ، ها انذا أقبل يدك . . والضيوف كلهم ، كم يحترمونك . . دفويتوتشيف رجل متدين ، أتدرين . . . وبروجينا ، والصراف أيضا . . . كلهم يكنون لك أطيب المشاعر . . . يقولون : «ماريا بتروفنا ليست امرأة بل شيء عسير على الفهم . . . انها كوكب اقليمنا» .

ـــ ارقد ! كفاك هذرا ! يسكر هناك فى النادى مع صعاليكه ثم يروح يغلى طول الليل ! الا تخجل ! عندك أولاد !

ـــ أنا . . . عندى أولاد ، ولكن أرجوك الا تغضبى يا ماشا . . لا تحزنى . . اننى اقدرك وأحبك . . . والأولاد ان شاء الله سأدبر أمورهم . ميتيا سأدخله المدرسة . . . لا استطيع أن اطردهم . . . لا يليق . . . جاءوا ورائى وطلبوا أن يتعشوا . قالوا : «نريد أن نأكل ، اطعمنا» . . . دفويتوتشيف وبروجينا ـــ بروجينسكى . . . ناس ظرفاء جدا . . . كم يقدرونك ويعطفون عليك . . فلنعط كلا منهم خيارة ، وكأسا ، وليمضوا فى سبيلهم . . . أنا سأتكفل بهم . . .

ـــ اللعنة ! ماذا ، هل جننت ؟ أى ضيوف فى

هذه الساعة ؟ الا يخجلون ، هؤلاء الشياطين المتسولون ، يزعجون الناس فى الليالى ! من سمع بضيوف يأتون فى الليل ؟ هل يظنون بيتنا حانة ؟ سأكون حمقاء لو أعطيتك المفاتيح ! فليفيقوا وليعودوا غدا !

— هم . . . هلا قلت هذا من البداية . . . اذن لما تذللت أمامك . . . اذن فأنت لست بشريكة العمر ، لست سلوى زوجك كما جاء فى الكتاب ، بل . . . من العيب أن أقول . . . كنت أفعى وظللت أفعى . . .

— آه . . . وتشتم أيضا يا وغد ؟

ونهضت الزوجة و . . . حكَّ القائد العسكرى خده ، ومضى يقول :

— ميرسي . . . صحيح ما قرأته فى احدى المجلات : «بين الناس قديس ، ومع زوجها إبليس» . . عين الحقيقة . . كنت إبليس ، وظللت إبليس . . .

— خذ ، خذ !

— اضربى ، اضربى . . اضربى زوجك الوحيد ! ولكنى أرجوك ، أتوسل اليك . . . يا ماشا . . . . سامحينى ! اعطينى المفاتيح ! ماشا ، يا ملاكى ! يا معذبتى الشريرة ، لا تفضحينى أمام الناس ! ايتها المتوحشة ، الى متى ستعذبيننى ؟ اضربى . . اضربى . . ارجوك . . . بل اتوسل اليك !

واستمر حديث الزوجين بهذه الصورة طويلا . . . ركع ريبروتيوسوف على ركبتيه ، وبكى مرتين ، وسب وهو يحك خده بين الحين والحين . . .. وانتهى الأمر بأن نهضت زوجته وبصقت وقالت :

— يبدو لن تكون نهاية لعذابي ! اعطني فستاني من على المقعد أيها الكافر !

وقدم لها ريبروتيبوسوف الفستان بحرص ، وسوى شعره ، وذهب الى ضيوفه . كان الضيوف واقفين امام صورة الجنرال يتطلعون الى عينيه المندهشتين وهم يقررون مسألة : من الاكبر ، الجنرال أم الكاتب لاجيتشنيكوف ؟ وكان دفويتوتشيف في صف لاجيتشنيكوف ، مشددا على الخلود . أما بروجينسكي فقد قال :

— بالطبع هو كاتب جيد ، لا شك في هذا . . . ويكتب فيثير الضحك والشفقة ، ولكن لو ارسلته الى الجبهة فلن يستطيع قيادة حتى سرية ، أما الجنرال فلتعطه ولو فيلقا كاملا ، لن يهمه . . .

وقال رب الدار وهو يدخل مقاطعا :

— زوجتي ماشا ستأتي الآن . . . حالا . .

— لقد ازعجناكم حقا . . . يا فيودور اكيميتش ، ماذا حدث لخدك ؟ يا إلهي ، وتحت عينك كدمة ! أين حصلت على هذا ؟

فقال رب الدار محرجا :

— خدي ؟ أين خدي ؟ آه ، نعم . . . لقد ذهبت الآن الى ماشا متسللا ، اردت أن أخيفها ، واذا بي اصطدم في الظلام بالسرير ! ها — ها . . . ها هي ماشا . . أوه كم أنت مشعثة يا عزيزتي ! مثل لويزا ميشيل تماما !

دخلت ماريا بتروفنا الى القاعة ، مشعثة الشعر ، نعسانة ، ولكنها متهللة ومرحة . وقالت :

— هذا لطيف منكم اذ جئتم الينا ! اذا كنتم لا

تأتون الينا فى النهار فشكرا لزوجى الذى جاء بكم ولو ليلا . كنت نائمة ، واذا بى أسمع اصواتا . . فقلت لنفسى : «يا ترى من هؤلاء ؟» . . . لقد أمرنى فيديا ان ارقد والا اخرج ، ولكنى لم أطق . . .

وهرولت الزوجة الى المطبخ ، وبدأ العشاء . . .

وعندما خرجوا بعد ساعة من دار القائد العسكرى قال بروجينا — بروجينسكى وهو يتنهد :

— ما أطيب أن تكون متزوجا ! تأكل عندما تريد ، وتشرب وقتما تشاء . . . وتعلم ان هناك مخلوقا يحبك . . . ويلعب لك على البيانو شيئا ما ، هكذا . . . ما أسعد ريبروتيوسوف !

اما دفويتوتشيف فلزم الصمت . كان يتنهد ويفكر . وعندما وصل الى البيت وراح يخلع ملابسه ، تنهد بصوت عال حتى أنه أيقظ زوجته .

— لا تدق بحذائك ايها الرحى ! — قالت زوجته . — تمنعنى من النوم . يشرب حتى السكر فى النادى ثم يثير الضجة ، هذا المسخ !

فتنهد المفتش قائلا :

— لا تعرفين سوى السباب ! لو انك رأيت كيف يعيش آل ريبروتيوسوف ! ما أروع حياتهم ! عندما ينظر المرء اليهم يود لو يبكى من التأثر . أنا وحدى التعيس اذ بليت بشمطاء مثلك . افسحى !

وتغطى المفتش بالبطانية ، ونام وهو يشكو فى سره حظه البائس .

١٨٨٤

الحرباء

عبر ميدان السوق يسير مفتش الشرطة اتشوميلوف فى معطف جديد ويحمل فى يده لفافة . ومن خلفه يسير شرطى احمر الشعر ومعه غربال مملوء لحافته بثمار عنب الثعلب المصادرة . والسكون مخيم . . . ولا احد فى السوق . . . وتطل ابواب المتاجر والحانات المفتوحة على العالم بنظرة كابية كالاشداق الجائعة . ولا يوجد بجوارها حتى الشحاذون .

وفجأة يسمع اتشوميلوف صوتا يقول :

— آه ، اذن فأنت تعض ايها الملعون . . امسكوه يا أولاد ! العض الآن ممنوع ! امسك ! . . آه ! . .

ويتردد عويل كلب . ويلتفت اتشوميلوف فيرى كلبا يركض من مخزن الحطب التابع للتاجر بتشوجين وهو يقفز على ثلاث ارجل ويتلفت . ويطارده شخص فى قميص من الشيت المنشى وصديرى مفتوح . يركض وراء الكلب ثم يسقط على الارض مادا جذعه الى الامام ويقبض على ساقى الكلب الخلفيتين . ويتردد من جديد عويل الكلب وصيحة : «امسكوه» . وتطل من المتاجر سحن ناعسة ، وسرعان ما يتجمع الناس بالقرب من مخزن الحطب وكأن الارض انشقت عنهم .

ويقول الشرطى :

— يبدو هنا اضطراب يا صاحب المعالى !

ويستدير اتشوميلوف نصف دورة الى اليسار متجها الى الجمع . ويرى بجوار بوابة المخزن مباشرة الشخص المذكور فى الصديرى المفتوح وهو يرفع يده اليمنى ليرى الجمع اصبعه المدماة . وكأنما كتب على سحنته الثملة : «سوف اريك ايها الملعون» ، واصبعه نفسها تشبه علامة النصر . ويتعرف اتشوميلوف فى هذا الرجل على الصائغ خريوكين . وفى وسط الجمع يجلس المتسبب فى هذه الضجة — جرو صيد ابيض ذو انف حاد وبقعة صفراء على ظهره ، مادا ساقيه الاماميتين ، وجسده كله يرتعش . وفى عينيه الدامعتين نظرة حزن ورعب .

ويسأل اتشوميلوف وهو يقتحم الحشد :

— بأية مناسبة انتم هنا ؟ لماذا هنا ؟ وانت لماذا اصبعك ؟ . . من الذى صاح ؟

ويشرع خريوكين فى الكلام وهو يتنحنح فى قبضته :

— كنت سائرا يا صاحب المعالى لا امس احدا . . بخصوص الحطب مع ميترى ميتريتش . . . وفجأة اذا بهذا الوغد ، ودون اى سبب ينهش اصبعى . . . ارجو المعذرة ، فانا رجل ، يعنى ، من العاملين . . . وعملى دقيق . . . فليدفعوا لى ، لانى ربما لا استطيع ان احرك هذه الاصبع اسبوعا . . . ولا يوجد فى القانون يا صاحب المعالى ما ينص على ان يتحمل الانسان هذه المخلوقات . . . فلو ان كل

واحد أخذ يعض ، فالافضل الا يعيش الانسان على ظهر الارض . . . .

فيقول اتشوميلوف بصرامة وهو يسعل ويحرك حاجبيه :

— هم ! حسنا . . . حسنا . . . كلب من هذا ؟ انا لن ادع ذلك هكذا ! سأريكم كيف تطلقون كلابكم ! آن أن ننتبه الى اولئك السادة الذين لا يريدون ان يمتثلوا للقوانين ! عندما يدفع الغرامة هذا الوغد سيعرف ما معنى الكلاب وغيرها من الدواب الضالة ! سأريه العفاريت الزرق ! — ويخاطب الشرطي — يلديرين ، اعرف كلب من هذا واكتب محضرا ! اما الكلب فينبغى اعدامه . فورا ! لا بد أنه مسعور . . . اننى اسألكم كلب من هذا ؟

ويقول شخص من الجمع :

— يبدو انه كلب الجنرال جيجالوف ! .

— الجنرال جيجالوف ؟ هم ! انزع عنى المعطف يا يلديرين . . . اف ، يا للحر ! يبدو ان المطر سيسقط . . . شىء واحد لا افهمه ، كيف استطاع ان يعضك — يقول مخاطبا خريوكين — امن المعقول انه يطال اصبعك ؟ انه صغير اما انت فانظر ما طولك ! يبدو انك جرحت اصبعك بمسمار ، وخطرت لك فكرة ان تحصل على تعويض . . . انتم هكذا . . . اعرفكم ايها الشياطين !

— يا صاحب المعالى ، كان يلسعه بالسيجارة فى وجهه ليضحك عليه ، فلم يكذب الكلب خبرا وعضه . . . انه شخص مشاكس يا صاحب المعالى !

— كذاب يا أحول ! انت لم تر شيئا فلماذا تكذب ؟ ان معاليه سيد ذكى ويعرف من الكذاب ومن الشريف النقى الضمير امام الله . . . واذا كنت اكذب فليحكم القاضى . . . فلديه مكتوب فى القوانين . . . الجميع الآن سواسية . . . وانا لى اخ فى الدرك ، اذا اردت ان تعلم . . .

— ممنوع الكلام !

ويقول الشرطى بنبرة تأمل عميق :

— كلا ، هذا ليس كلب الجنرال . ليس لدى الجنرال كلاب كهذه . . . كلابه اكثرها سلوقية . . .

— هل انت متأكد ؟

— متأكد يا صاحب المعالى . . .

— انا نفسى اعرف ذلك . كلاب الجنرال غالية ، أصيلة ، اما هذا . . . فالشيطان يعلم ما هو ! لا شعر ولا هيئة . . . مجرد حقارة لا غير . أهذا كلب يقتنى ؟ ! اين عقولكم ؟ لو ان كلبا كهذا ظهر فى بطرسبرج او موسكو ، اتعلمون ماذا كان يحدث ؟ ما كان احد ليلتفت الى القانون ، بل على الفور ولا كلمة ! هس ! انت يا خريوكين قد تضررت ولا تدع الامر يمر هكذا . . . ينبغى ان تؤدبهم . . . آن الاوان !

ويقول الشرطى وهو يفكر بصوت مسموع :

— وربما كان كلب الجنرال . . . فليس مكتوبا على سحنته . . . رأيت من مدة كلبا مثله فى فناء منزله .

ويقول صوت من الحشد :

— واضح ، كلب الجنرال !

— هم ! البسنى المعطف يا يلديرين . . . يبـدو ان النسيم يهب . . لقد بردت . . . احمله الى الجنرال واسأل هناك . قل لهم اننى وجدته وارسلته . . . وقل لهم ايضا الا يخرجوه الى الشارع . . . فهو كلب ربما غال ، واذا اخذ كل خنزير يلسعه بالسيجارة فى وجهه فمن السهل اتلافه . . الكلب حيوان مهم . . . وانت ايها الغبـى انزل ذراعك ! كفاك ابرازا لاصبعك الحمقاء ! انت المذنب ! . .

— ها هو طباخ الجنرال قادم ، فلنسأله . . . إى ، يا بروخور . . . تعال هنا يا عزيزى . . . انظر الى هذا الكلب . . . اهو كلبكم ؟

— يا سلام ! لم يكن لدينا ابدا كلاب مثله !

فيقول اتشوميلوف :

— ليس هناك داع للسؤال . . هذا كلب ضال ! لا داع للكلام الكثير . . . اذا قلت انه ضال فهو ضال . . . ينبغى اعدامه وكفى .

واستطرد الطباخ :

— ليس كلبنا ، انه كلب شقيق الجنرال الذى وصل من مدة . جنرالنا لا يحب كلاب الصيد . اما اخوه فيحبها .

ويسأل اتشوميلوف ويفيض وجهه بابتسامة تأثر :

— احقا وصل شقيق الجنرال ؟ فلاديمير ايفانتش ؟ آه يا ربـى ! وانا لا اعلم ! هل جاء للزيارة ؟

— للزيارة . . .

— آه يا ربـى . . . اوحشه شقيقه . . . وانا لا اعلم ؟ اذن فهذا كلبه ؟ سعيد جدا . . . خذه . . . ياله من كلب ! شقى . . . هبش هذا من اصبعه . . . ها — ها — ها . . .

مالك ترتعش ؟ .. اوه انه غاضب هذا الماكر . . . يالك من صغير . .

ويدعو بروخور الكلب ويمضى معه مبتعدا عن مخزن الحطب . . ويقهقه الجمع سخرية بخريوكين .

ويقول له اتشوميلوف متوعدا :

— مهلا ، سوف افرغ لك !

ويمضى فى طريقه عبر ميدان السوق متدثرا بالمعطف .

١٨٨٤

القناع

اقيم فى نادى «س» الاجتماعى حفل تنكرى لغرض خيرى .

كانت الساعة الثانية عشرة ليلا . وجلس المثقفون غير الراقصين — وكانوا خمسة — فى قاعة المطالعة الى طاولة كبيرة ودسوا انوفهم ولحاهم فى الجرائد وراحوا يقرأون وينعسون ، و «يفكرون» على حد تعبير المراسل المحلى لجرائد العاصمة ، وهو سيد ليبرالى جدا .

وتناهت من الصالة العامة انغام رقصة «فيوشكى» . ومن حين لآخر كان الخدم يهرولون بجوار الباب وهم يدقون عاليا باقدامهم ويثيرون رنين الاوانى . بينما كان الصمت العميق يسود قاعة المطالعة .

وفجأة تردد صوت غليظ مكتوم بدا وكأنه صادر من المدفأة .

— يبدو ان المكان هنا سيكون مناسبا . تعالوا هنا يا أولاد ! تعالوا ، تعالوا !

وفتح الباب ، ودخل قاعة المطالعة رجل عريض ، ربعة ، يرتدى حلة حوذى وقبعة بريش طاووس وقناعا . وتبعته سيدتان مقنعتان وخادم يحمل صينية . وكان على

الصينية زجاجة ليكير منبعجة وثلاث زجاجات نبيذ احمر وبضعة أكواب .

وقال الرجل :

— تعالوا ! الجو هنا ابرد . . . ضع الصينية على الطاولة . . . اجلسن يا موزمزيلات ! جى فو برى * ، اما انتم يا سادة فلتفسحوا . . . هيا من هنا !

وتمايل الرجل وازاح بيده عدة مجلات من على الطاولة .

— ضع هنا ! اما انتم ايها السادة القراء . فلتفسحوا . لا وقت هنا لقراءة الجرائد والسياسة . . . دعوا عنكم هذا !

فقال احد المثقفين وهو ينظر الى صاحب القناع من خلال نظارته :

— الزم الهدوء من فضلك . هذه قاعة مطالعة وليس بوفيه . . . ليس هذا مكانا للشرب .

— ولماذا ليس مكانا ؟ هل الطاولة تتأرجح ام ربما السقف يتساقط ؟ شيء عجيب ! حسنا . . . لا وقت عندى للحديث ! اتركوا الجرائد . . . يكفيكم ما قرأتم . . . انتم هكذا اذكياء أكثر من اللازم ، كما انكم تتلفون ابصاركم . واهم ما فى الامر اننى لا اريد . انتهينا .

ووضع الخادم الصينية على الطاولة ، وطوى الفوطة على ذراعه ووقف بجوار الباب . وشرعت السيدتان فورا فى تناول النبيذ الاحمر .

---

* جى فو برى (Je vous pris) — ارجوكم ، من فضلكم (بالفرنسية) . المعرب .

وقال الرجل ذو ريش الطاووس وهو يصب لنفسه ليكيرا :
— كيف يوجد اناس اذكياء يعتبرون الجرائد افضل من هذه المشروبات . اما انا فأرى ايها السادة المحترمون انكم تحبون الجرائد لانكم لا تملكون ما تشربون به ، اليس كذلك ؟ ها — ها ! . . انهم يقرأون ! حسنا وما هو المكتوب هناك ؟ ايها السيد ذو النظارة ، اية وقائع تقرأ ؟ ها — ها ! دعك من ذلك ! كفاك تمنعا . اشرب افضل .
ونهض الرجل ذو ريش الطاووس وانتزع الجريدة من يدي السيد ذى النظارة ، فامتقع هذا ، ثم تضرج ونظر بدهشة الى بقية المثقفين ، ونظر هؤلاء اليه .
وانفجر قائلا :
— انك تتجاوز حدودك يا سيدى المحترم . انك تحول قاعة المطالعة الى حانة . . . انك تسمح لنفسك بالعربدة واختطاف الجرائد من الايدى ! لن اسمح لك ! انت لا تعرف مع من تتحدث يا حضرة المحترم ! انا جيستياكوف ، مدير البنك !
— طظ ، فلتكن جيستياكوف ! اما جريدتك فها هى قيمتها . . .
ورفع الرجل الجريدة ومزقها قطعا .
ودمدم جيستياكوف مصعوقا :
— ما هذا يا سادة ؟ هذا شيء غريب . . . هذا . . . هذا غير معقول . . .
فضحك الرجل قائلا :
— سيادته زعلان ! آى ، آى ، اخفتنى ! اقدامى ترتعش ، اسمعوا ايها السادة المحترمون ! كفى مزاحا . . .

انا لا ارغب فى الحديث معكم . . ولما كنت اريد ان ابقى هنا مع المزموزيلات على انفراد واريد ان امتع نفسى ، لذلك ارجوكم . الا تحرنوا ولتخرجوا . . . تفضلوا من هنا ! يا سيد بيليبوخين اخرج من هنا فى ألف داهية ! ما لك تقلب سحنتك ؟ اقول لك اخرج يعنى تخرج ! هيا عجّل والا اهويت على قفاك !

فتساءل بيليبوخين صراف المحكمة وهو يحمر ويهز كتفيه :

— كيف ! ما معنى هذا ؟ ! انا حتى لا افهم . . . شخص وقح يقتحم علينا المكان . . . وفجأة يتفوه بهـذه الاشياء !

فصاح الرجل ذو ريش الطاووس غاضبا ، ودق بقبضته على المائدة حتى تراقصت الاكواب على الصينية :

— ماذا تقول ؟ وقح ؟ لمن تقولها ؟ اتظن اننى ما دمت فى القناع فبوسعك ان توجه لى مختلف الكلمات ؟ يالك من مشاغب ! اخرج من هنا اقول لك ! يا مدير البنك ، انكشح من هنا بالمعروف ! اخرجوا جميعا . اياكم ان يبقى منكم لئيم هنا ! غوروا فى الف داهية !

فقال جيستياكوف الذى غامت نظارته من شدة الانفعال :

— حسنا ، سنرى الآن ! سأريك ! ايه ، استدع الشاويش المناوب !

وبعد دقيقة دخل شاويش صغير احمر الشعر بشريط ازرق على ياقة سترته وهو يلهث من الرقص ، وقال :

— تفضلوا بالخروج . ليس هذا مكانا للشرب ! تفضلوا فى البوفيه !

وسأل الرجل ذو القناع :

— من اين جئت انت ؟ هل انا دعوتك ؟
— ارجو ان تخاطبني باحترام ، وتفضل بالخروج !
— اسمع يا عزيزي . . . سأمهلك دقيقة . . . وطالما انت شاويش وشخصية مهمة ، فلتسحب هؤلاء الممثلين من ايديهم . مزموزيلاتي لا يعجبهن وجود غرباء هنا . . . يشعرن بالخجل ، وانا اريد مقابل نقودي ان يكنّ في حالتهن الطبيعية .

وصاح جيستياكوف :

— يبدو ان هذا المأفون لا يفهم انه ليس في حظيرة . استدعوا يفسترات سبيريدونتش !

وترددت في النادي :

— يفسترات سبيريدونتش ! اين يفسترات سبيريدونتش ؟

وسرعان ما ظهر يفسترات سبيريدونتش ، وهو عجوز يرتدي حلة شرطي . وصاح بصوت مبحوح وهو يحلق بعينيه المرعبتين ويحرك شواربه المصبوغة :

— تفضل بالخروج من هنا !

فقال الرجل وهو يقهقه من المتعة :

— آه ، لقد ارعبتني ! اي والله ارعبتني ! اقسم لكم انني لم أر شيئا رهيبا كهذا ! شواربـه كشوارب القط ، وعيناه جاحظتان . . . ها — ها — ها ! ها — ها — ها !

فصاح يفسترات سبيريدونتش بكل قوته واهتز بدنه :

— ممنوع الكلام ! اخرج من هنا ! سآمر بطردك !

وارتفع في قاعة المطالعة صخب لا مثيل له . كان يفسترات سبيريدونتش يصرخ ويدق بقدميه وقد احمر كسرطان البحر . وكان جيستياكوف يصرخ . وكان بيليبوخين يصرخ . كان

جميع المثقفين يصرخون ، ولكن غطى على اصواتهم جميعا صوت الرجل ذى القناع ، الغليظ الاجش . وبسبب الهرج العام توقف الرقص ، وتقاطر الناس من الصالة الى قاعة المطالعة .

ولكى يظهر يفسترات سبيريدونتش هيبته استدعى جميع رجال الشرطة الموجودين فى النادى ، وجلس ليكتب محضرا .

فقال ذو القناع وهو يدس اصبعه تحت القلم :

— اكتب ، اكتب . يالى من مسكين ، ترى ماذا سيحدث لى الآن ؟ يالحظى البائس ! حرام عليكم ما تفعلونه بيتيم مثلى ! ها — ها — ها ! حسنا ، ماذا ؟ هل محضرك جاهز ؟ هل وقع الجميع ؟ فلتنظروا الآن اذن ! . . واحد . . . اثنان . . . ثلاثة ! . .

ونهض الرجل ومد قامته بطولها ونزع القناع عن وجهه . وبعد ان كشف وجهه الثمل وطاف بنظره على الجميع مستمتعا بما احدثه من تأثير ، تهاوى على الكرسى وقهقه بفرح . وبالفعل كان التأثير الذى احدثه غير عادى . تبادل المثقفون النظرات فى ارتباك وامتقعت وجوههم ، وحك بعضهم قفاه . وتحشرج يفسترات سبيريدونتش كالشخص الذى ارتكب عفوا حماقة كبيرة .

لقد عرف الجميع فى هذا الرجل الهائج المليونير المحلى صاحب المصانع والمواطن العريق المحترم بيتيجوروف ، المعروف بفضائحه وبأعماله الخيرية ، وكما ذكرت الجريدة المحلية غير مرة ، بحبه للمعرفة .

وبعد دقيقة من الصمت سأل بيتيجوروف :

— حسنا هل ستنصرفون ام لا ؟

وخرج المثقفون من غرفة المطالعة على اطراف اصابعهم

فى صمت ، دون ان يتفوهوا بكلمة ، فأوصد بيتيجوروف الباب خلفهم .

وبعد دقيقة كان يفسترات سبيريدونتش يفح هامسا وهو يهز كتف الخادم الذى حمل الخمر الى قاعة المطالعة :

— لقد كنت تعلم انه بيتيجوروف ، لماذا سكتَّ ؟

— امرنى الا اقول !

— امره الا يقول . . . سأسجنك ايها الملعون شهرا وعندئذ ستعرف ما معنى «امرنى الا اقول» ، اخرج ! . . — وقال مخاطبا المثقفين — وانتم ايضا يا سادة ما احلاكم . . اعلنوا العصيان ! لم يكن فى استطاعتكم ان تخرجوا من قاعة المطالعة لعشر دقائق ! حسنا ، تحملوا اذن مسئولية ما صنعتم ! آه يا سادة ، يا سادة . . . غير سليم . . .

وسار المثقفون فى النادى مقهورين ، ضائعين ، مذنبين يتهامسون ويتوقعون شرا . . . وعندما عرفت زوجاتهم وبناتهم بالحادث اخلدن الى السكون وتفرقن عائدات الى بيوتهن . وتوقف الرقص .

وفى الساعة الثانية خرج بيتيجوروف من قاعة المطالعة ؛ كان ثملا يترنح . وعندما دخل الصالة جلس بقرب الاوركسترا ونعس على انغام الموسيقى . ثم امال رأسه بحزن وعلا شخيره .

واشاح الشاويشية بايديهم للعازفين :

— لا تعزفوا ! هس ! . . يجور نيليتش نائم .

وسأل بيليبوخين وهو ينحنى على اذن المليونير :

— هل تأمرون بتوصيلكم الى البيت يا يجور نيليتش ؟

وندت عن شفتى بيتيجوروف حركة وكأنه يريد ان ينفخ ذبابة عن خده .

وعاد بيليوخين يسأل :

— هل تأمرون بتوصيلكم الى البيت ؟ ام باستدعاء العربة ؟

— هه ؟ من ؟ انت . . . ماذا تريد ؟

— اريد ان اوصلكم . . حان وقت النوم . . .

— اريد ان اذهب . . . اوصلنى !

وتهلل بيليوخين من الرضا وشرع ينهض بيتيجوروف . واسرع اليه بقية المثقفين ، وأنهضوا المواطن الاصيل المحترم وهم يبتسمون بسرور ، وساروا به بحذر الى العربة .

وقال جيستياكوف بمرح وهو يجلسه :

— لا يستطيع ان يضحك على جماعة كاملة الا ممثل موهوب . انا مأخوذ حقا يا يجور نيليتش ! حتى الآن ما زلت اضحك . . . ها — ها . . . كنا نغلى ونتلمظ ! ها — ها ! هل تصدقون ؟ لم اضحك ابدا فى المسرح مثلما ضحكت اليوم . فكاهة بلا حدود ! سأظل طول عمرى اذكر هذه الامسية التى لا تنسى !

وبعد أن أوصل المثقفون بيتيجوروف عاودهم المرح والاطمئنان .

وقال جيستياكوف وهو سعيد جدا :

— لقد مد لى يده عند الوداع . اذن فليس غاضبا .

فتنهد يفسترات سبيريدونتش :

— يسمع منك ربنا ! انه رجل وغد ، حقير ، ولكنه محسن ! . . لا يصح ! . .

١٨٨٤

مع سبق الإصرار

أمام المحقق يقف فلاح صغير ، نحيف للغاية ، فى قميص مقلم وسروال مرقع . ويبدو على وجهه الذى غطاه الشعر وأكله النمش ، وعينيه اللتين لا تكادان تظهران من تحت حاجبيه الكثيفين المتهدلين ، تعبير صرامة عابسة . وعلى رأسه كومة من الشعر الملبد الذى لم يمشط منذ زمن طويل ، مما يضفى عليه مزيدا من الصرامة العنكبوتية . وهو حافى القدمين .

ويبدأ المحقق :

— دينيس جريجوريف ! اقترب وأجب على اسئلتى . فى السابع من يوليو الجارى كان حارس السكة الحديدية ايفان سيميونوف آكينفوف يقوم بالتفتيش صباحا على الخط ، فوجدك عند الكيلو ١٤١ متلبسا بفك صامولة من الصواميل التى تثبت بها القضبان على الفلنكات . وها هى الصامولة ! وقد قبض عليك ومعك هذه الصامولة . هل هذا هو ما حدث ؟

— أه ؟

— هل حدث هذا كما ذكر أكينفوف ؟

— معلوم ، حصل .

— طيب ، ولأى غرض فككت الصامولة ؟
— أه ؟ .
— دعك من «أهك» هذه وأجب على السؤال : لأى غرض فككت الصامولة ؟
يقول دينيس بصوت أبح وهو يتطلع الى السقف :
— لو لم أكن بحاجة اليها ما فككتها .
— وما حاجتك الى الصامولة ؟
— الصامولة ؟ نحن نصنع منها ثقالات السنانير . . .
— ومن هؤلاء «نحن» ؟
— نحن ، الناس . . . فلاحو الناحية يعنى .
— اسمع يا أخانا ، لا تتظاهر بالغباء وتكلم بصراحة . كفاك كذبا بخصوص الثقالات !
فيدمدم دينيس وهو يطرف بعينيه :
— أنا عمرى ما كذبت ، فلماذا اكذب الآن . . . وهل يمكن يا صاحب السعادة ان تصيد بدون ثقالة ؟ لو وضعت حشرة أو دودة فى السنارة فهل يمكن ان تغوص الى القاع بدون ثقالة ؟ — ويضحك دينيس ضحكة قصيرة . — اكذب قال . . . وأى فائدة من الطعم اذا بقى طافيا على سطح الماء ؟ الفرخ والكراكى والبربوط دائما تعوم قرب القاع ، واذا عام شىء عند السطح فليس الا الشيليشبيور وحتى هذا نادر . . . الشيليشبيور لا يعيش فى نهرنا . . . هذه السمكة تحب الوسع . .
— ولماذا تحدثنى عن الشيليشبيور ؟
— أه ؟ طيب ، أصل حضرتك سألتنى ! السادة أيضا عندنا يصطادون بهذه الطريقة . حتى أصغر عيل لن

يصطاد بدون ثقالة . طبعا الذى لا يفهم هو الذى سيصطاد بدون ثقالة . العبيط لا عتب عليه . . .

— اذن انت تعترف بأنك فككت هذه الصامولة لكى تصنع منها ثقالة ؟

— مضبوط ! وهل لألعب بها ! .

— ولكنك تستطيع أن تستخدم للثقالة الرصاص ، أو الرش . . أو أى مسمار . .

— الرصاص لن تجده ملقى على الطريق ، لازم تشتريه ، والمسمار لا ينفع . ليس هناك أحسن من الصامولة . . . فهى ثقيلة وبها خرم .

— كيف يتظاهر بالغباء ! كأنه ولد بالأمس أو هبط من السماء . ألا تفهم أيها الأحمق الى أى شىء يؤدى فك الصواميل ؟ لو لم يكتشف الحارس ذلك لكان من الممكن أن يخرج القطار عن القضبان ولمات الناس ! كنت ستتسبب فى قتل الناس !

— اعوذ بالله يا صاحب السعادة ! لماذا اقتلهم ؟ وهل نحن لا نعرف ربنا أم اننا اشرار ؟ الحمد لله يا صاحب السعادة ، أنا عشت حياتى ولم اقتل احدا ولم أفكر حتى فى ذلك . . يا ساتر يا رب ارحمنا . . . كيف تقول ذلك !

— وما رأيك ، لماذا تقع حوادث انقلاب القطارات ؟ اذا فككت صامولتين أو ثلاثا وقع الحادث !

ويضحك دينيس ضحكة سخرية قصيرة ويزر عينيه محدقا فى المحقق بارتياب .

— لا ! من سنين وكل أهل القرية يفكون الصواميل ، وربنا سترها ، وحضرتك تقول : انقلاب القطارات ! . .

قتل الناس . . . لو أنى خلعت القضيب ، أو وضعت مثلا جذع شجرة بعرض القضبان فيمكن ساعتها ينقلب القطار . . . ولكن هذه مجرد صامولة ! شيء بسيط !

— الا تفهم ان الصواميل تثبت بها القضبان فى الفلنكات !

— نحن نفهم هذا . . . اننا لا نفك كل الصواميل . . نأخذ البعض ونترك الباقى . . . عندنا نظر . . فاهمين طبعا . . .

ويتثاءب دينيس ويرسم علامة الصليب على فمه .

ويقول المحقق :

— فى العام الماضى خرج قطار عن القضبان هنا . . . مفهوم الآن لماذا . . .

— ماذا تقول حضرتك ؟

— أقول مفهوم الآن لماذا خرج قطار عن القضبان فى العام الماضى . . الآن فهمت أنا السبب !

— سعادتكم من أهل العلم ولذلك تفهمون . . ربنا أعلم لمن يعطى المفهومية . . أهو حضرتك عرفت وقدرت ، لكن الحارس مثله مثل الفلاح ، ليس عنده أى مفهومية ، يمسك الواحد من قفاه ويشده . . طيب الأول اعرف وبعدين شد ! الفلاح فلاح ، ومخه فلاحى . . . اكتب أيضا يا صاحب السعادة ، انه ضربنى مرتين فى وجهى وفى صدرى .

— عند اجراء التفتيش وجد عندك صامولة أخرى . . . فأين ومتى فككت هذه الصامولة ؟

— حضرتك تقصد الصامولة التى كانت تحت الصندوق الأحمر ؟

— لا أعرف اين كانت هذه الصامولة ، لكنهم وجدوها

لديك . متى فككتها ؟

— أنا لم افككها . اعطانى اياها ايجناشكا ، ابن سيمون الاعور . أنا اقصد الصامولة التى تحت الصندوق ، اما تلك التى فى الزحافة ، فى الحوش ، ففككتها أنا ومتروفان .

— أى متروفان ؟

— متروفان بتروف . . . ألم تسمع عنه ؟ انه يصنع الشباك ويبيعها للسادة . وهو يحتاج الى صواميل كثيرة مثل هذه . كل شبكة تحتاج الى حوالى عشر صواميل . . .

— اسمع . . . المادة ١٠٨١ من قانون العقوبات تنص على ان كل تخريب متعمد للسكك الحديدية يكون من شأنه تعريض سلامة وسيلة النقل المارة بها للخطر ، وفى حالة معرفة الجانى بالعواقب الوخيمة التى سيؤدى اليها فعله . . فاهم ؟ ولا بد أنك تعرف الى اى شيء يؤدى فــك الصواميل . . . يعاقب مرتكبه بالنفى والأشغال الشاقة .

— طبعا حضرتك أدرى . . نحن ناس جهلة . . . وهل نحن نفهم ؟

— انت فاهم كل شيء ! لكنك تكذب ، وتتظاهر بالغباء !

— ولماذا اكذب ؟ اسأل أهل القرية ان كنت لا تصدقنى . . . بدون الثقالة لا يصطاد الا السمك الأبيض ، وهل هناك اسوأ من القوبيون ، ومع ذلك فلا يمكن صيده بدون الثقالة .

فيبتسم المحقق قائلا :

— أظنك ستحدثنى الآن عن الشيليشبيور .

— الشيليشبيور لا يعيش فى نواحينا . . . نرمى الخيط

بدون ثقالة على سطح الماء ، والطعم فراشة ، ونصطـاد الشبوط ، وحتى هذا نادر . .

— طيب ، اسكت . . .

ويسود الصمت . يقف دينيس متململا ، ويحدق في الطاولة ذات المفرش من الجوخ الأخضر ويطرف بشدة وكأنه لا يرى أمامه جوخا بل شمسا . والمحقق يدون بسرعة .

وبعد فترة صمت يسأل دينيس :

— هل انصرف ؟

— لا ، ينبغي أن ارسلك تحت الحراسة الى السجن .

يكف دينيس عن الطرف ، ويرفع حاجبيه الكثيفين ، وينظر الى المحقق متسائلا :

— كيف الى السجن ؟ يا صاحب السعادة ! أنا مستعجل ، لازم أروح للسوق . ولى عند يجور ثلاثة روبلات ثمن الشحم لازم استلمها .

— اسكت ، لا تشوش عليّ .

— الى السجن . . . لو كنت فعلت ما يستحق السجن لذهبت ، ولكن هكذا . . بدون ذنب . . ماذا فعلت ؟ لم أسرق ، وأظن لم اتعارك . . . أما اذا كنت تشك فيّ بخصوص الدين ، فلا تصدق العمدة يا صاحب السعادة . . . ارجوك اسأل السيد عضو اللجنة . . . العمدة لا يعرف ربنا . . .

— اسكت !

فيدمدم دينيس :

— انا ساكت . . طيب انا مستعد احلف اليمين ان العمدة يغالط فى الحساب . . . نحن ثلاثة أخوة : كوزما جريجوريف ، وبعدين يجور جريجوريف ، وأنا دينيس

جريجوريف . . .

ـــ انت تشوش عليّ . . . ـــ ويصيح المحقق : ـــ ياسيميون ! خذه !

ويدمدم دينيس بينما يقتاده جنديان قويان خارج غرفة التحقيق :

ـــ نحن ثلاثة أخوة . . والأخ لا يحاسب على ذنب أخيه . . . كوزما لا يدفع وأنا المسئول ! يا لكم من قضاة ! مات السيد الجنرال ، عليه الرحمة ، والا لأراكم الويل ، ايها القضاة . . اذا حكمتم فلتحكموا بالعدل ، بالمفهومية . . وليس هكذا بلا ذنب . . حتى لو حكمتم بالجلد فليكن . . المهم بالحق ، بالأمانة . . .

١٨٨٥

وحشة ⁽¹⁾

لمن اشكو حزني ؟ . .

غسق المساء . ندف الثلج الكبيرة الرطبة تدور بكسل حول مصابيح الشارع التى أضيئت لتوها ، وتترسب طبقة رقيقة لينة على أسطح المنازل وظهور الخيل ، وعلى الأكتاف والقبعات . والحوذى أيونا بوتابوف أبيض تماما كالشبح . انحنى متقوسا بقدر ما يستطيع الجسد الحى أن يتقوس وهو جالس على المقعد بلا حراك . ويبدو أنه لو سقط عليه كوم كامل من الثلج فربما ما وجد ضرورة لنفضه . . . وفرسه ايضاً بيضاء ، تقف بلا حراك . وتبدو بوقفتها الجامدة ، وعدم تناسق بدنها ، وقوائمها المستقيمة كالعصيّ حتى عن قرب أشبه بحصان الحلوى الرخيص . وهى على الأرجح مستغرقة فى التفكير . فمن انتزع من المحراث ، من المشاهد الريفية المألوفة وألقى به هنا فى هذه الدوامة المليئة بالاضواء الخرافية ، والصخب المتواصل والناس الراكضين ، لا يمكن الا أن يفكر . . .

لم يتحرك أيونا وفرسه من مكانهما منذ وقت طويل . كانا قد خرجا من الدار قبل الغداء ولكنهما لم يستفتحا حتى الآن . وها هو ظلام المساء يهبط على المدينة .. ويتراجع شحوب اضواء المصابيح مفسحا مكانه للالوان الحية ،

وتعلو ضوضاء الشارع .

ويسمع أيونا :

— يا حوذى ! الى فيبورجسكايا ! يا حوذى !

ينتفض ايونا ، ويرى من خلال رموشه المكللة بالثلج رجلا عسكريا فى معطف بقلنسوة .

ويردد العسكرى :

— الى فيبورجسكايا ، ماذا ، هل انت نائم ؟ الى فيبورجسكايا !

ويشد ايونا اللجام علامة الموافقة ، فتتساقط اثر ذلك طبقات الثلج من على ظهر الفرس ومن على كتفيه . . . ويجلس العسكرى فى الزحافة . ويطقطق الحوذى بشفتيه ، ويمد عنقه كالبجعة ، وينهض قليلا ، ويلوح بالسوط بحكم العادة اكثر مما هو بدافع الحاجة . وتمد الفرس ايضا عنقها ، وتعوج سيقانها العصوية وتتحرك من مكانها بتردد . . .

وما أن يمضى ايونا بالزحافة حتى يسمع صيحات من الحشد المظلم المتحرك جيئة وذهابا :

— الى أين تندفع أيها الاحمق ! أى شيطان القى بك ؟ الزم يمينك !

ويقول العسكرى بانزعاج :

— انت لا تعرف كيف تسوق ! الزم يمينك !

ويسب حوذى عربة حنطور ، ويحدق بغضب أحد المارة ، وكان يعبر الطريق فاصطدمت كتفه بعنق الفرس ، وينفض الثلج عن كمه . ويتململ أيونا فوق المقعد وكأنه جالس على جمر ، ويضرب بمرفقيه فى كلا الجانبين ، ويدور بنظراته كالممسوس ، وكأنما لا يفهم أين هو ولماذا هو هنا .

ويسخر العسكرى :

— يا لهم جميعا من أوغاد ! كلهم يسعون الى الاصطدام بك او الوقوع تحت أرجل الفرس . انهم متآمرون ضدك .

يتطلع ايونا الى الراكب ويحرك شفتيه . . . يبدو أنه يريد ان يقول شيئا ما ، ولكن لا يخرج من حلقه شيء سوى الفحيح .

فيسأله العسكرى :

— ماذا ؟

يلوى أيونا فمه بابتسامة ويوتّر حنجرته ويفح :

— أنا يا سيدى . . . هذا الاسبوع يعنى . . ابنى مات .

— إم ! . . ومم مات اذن ؟

يستدير ايونا بجسده كله نحو الراكب ويقول :

— ومن يدرى ؟ الظاهر من الحمى . . . رقد في المستشفى ثلاثة ايام ومات . . . مشيئة الله .

ويتردد فى الظلام :

— حاسب يا ملعون ! هل عميت ايها الكلب العجوز ؟ افتح عينيك !

ويقول الراكب :

— هيا ، هيا سر . . . بهذه الطريقة لن نصل ولا غدا . عجّل !

ويمد الحوذى عنقه من جديد ، وينهض قليلا ويلوح بالسوط بحركة رشيقة متثاقلة . ويلتفت الى الراكب عدة مرات ، ولكن الأخير كان قد اغمض عينيه ويبدو غير راغب فى الانصات . وبعد ان ينزله فى فيبورجسكايا يتوقف

عند احدى الحانات ، وينحنى متقوسا وهو جالس على مقعد الحوذى ، ويجمد بلا حراك مرة أخرى . . . ومن جديد يصبغه الثلج الرطب هو وفرسه باللون الابيض . وتمر ساعة ، وأخرى . . .

على الرصيف يسير ثلاثة شبان وهم يقرقعون بأحذيتهم فى صخب ويتبادلون السباب . اثنان منهم طويلان نحيفان ، والثالث قصير أحدب .

ويصيح الأحدب بصوت مرتعش :

— يا حوذى ، الى جسر الشرطة ! ثلاثة ركاب . . بعشرين كوبيكا !

يشد أيونا اللجام ويطقطق بشفتيه . ليست العشرون كوبيكا بسعر مناسب ، ولكنه فى شغل عن السعر . . . فسواء لديه روبل ام خمسة كوبيكات . . . المهم أن يكون هناك ركاب . . . يقترب الشبان من الزحافة وهم يتدافعون بألفاظ نابية ، ويرتمى ثلاثتهم على المقاعد دفعة واحدة . وتبدأ مناقشة قضية : من الاثنان اللذان سيجلسان ، ومن الثالث الذى سيقف ؟ وبعد سباب طويل ونزق وعتاب يصلون الى حل : الأحدب هو الذى ينبغى أن يقف باعتباره الأصغر .

فيقول الأحدب بصوته المرتعش وهو يثبت اقدامه ويتنفس فى قفا ايونا :

— هيا عجّل ! اضربها بالسوط ! يا لها من قبعة لديك يا أخى ! لن تجد فى بطرسبرج كلها اسوأ منها . . .

فيقهقه ايونا :

— هيء—هيء . . . هيء—هيء . هذا هو الموجود . . .

— اسمع انت ، ايها الموجود ، عجّل ! هل ستسير

هكذا طول الطريق ؟ نعم ؟ الا تريد صفعة على قفاك ؟ . .

ويقول أحد الطويلين :

ـــ رأسي يكاد ينفجر . . . بالأمس شربت أنا وفاسكا عند آل دوكماسوف أربع زجاجات كونياك نحن الاثنين .

ويقول الطويل الآخر بغضب :

ـــ لا أدرى ما الداعى للكذب ! يكذب كالحيوان .

ـــ عليّ اللعنة ان لم يكن حقيقة . . .

ـــ انها حقيقة مثلما هى حقيقة أن القملة تسعل .

فيضحك أيونا :

ـــ هىء ـ هىء . . سادة ظرفاء !

ويقول الأحدب بسخط :

ـــ فلتخطفك الشياطين ! هل ستعجل ايها الوباء العجوز ام لا ؟ هل هذا سير ؟ ناولها بالسوط ! هيا ايها الشيطان ! هيا ! ناولها جيدا !

ويحس ايونا خلف ظهره بجسد الأحدب المتململ ورعشة صوته . ويسمع السباب الموجه اليه ، ويرى الناس فيبدأ الشعور بالوحدة ينزاح عن صدره شيئا فشيئا . ويظل الأحدب يسب حتى يغص بسباب منتقى فاحش وينفجر فى السعال . ويشرع الطويلان فى الحديث عمن تدعى ناديجدا بتروفنا . ويتطلع ايونا نحوهم . وينتهز فرصة الصمت فيتطلع نحوهم ثانية ويدمدم :

ـــ أصل أنا . . هذا الأسبوع يعنى . . ابنى مات !

فيتنهد الأحدب وهو يمسح شفتيه بعد السعال :

ـــ كلنا سنموت . . . هيا عجّل ، عجّل ! يا سادة ، أنا لا يمكن أن أمضى بهذه الطريقة ! متى سيوصلنا ؟

— حسنا ، فلتشجعه قليلا . . . في قفاه !

— هل سمعت ايها الوباء العجوز ؟ سأكسر لك عنقك ! التلطف مع جماعتكم معناه السير على الأقدام . . . هل تسمع ايها الثعبان الشرير ؟ ام انك تبصق على كلماتنا ؟

ويسمع أيونا اكثر مما يحس بصوت الصفعة على قفاه . فيضحك :

— هيء—هيء . . سادة ظرفاء . . . ربنا يعطيكم الصحة !

ويسأل أحد الطويلين :

— يا حوذي ، هل أنت متزوج ؟

— أنا ؟ هيء—هيء . . . سادة ظرفاء ! لم يعد لديّ الآن الا زوجة واحدة : الارض الرطبة . . هيء—هوء—هوء . . . القبر يعني ! . . ها هو ابني قد مات وأنا أعيش . . . حاجة غريبة ، الموت غلط في الباب . . . بدلا من أن يأتيني ذهب الى ابني . . .

ويلتفت ايونا لكي يروي كيف مات ابنه ، ولكن الأحدب يتنهد بارتياح ويعلن انهم اخيرا ، والحمد لله ، وصلوا . ويحصل ايونا على العشرين كوبيكا ويظل ينظر طويلا في أثر العابثين وهم يختفون في ظلام المدخل . وها هو وحيد ثانية ، ومن جديد يشمله السكون . . . والوحشة التي هدأت قليلا تعود تطبق على صدره بأقوى مما كان . وتدور عينا ايونا بقلق وعذاب على الجموع المهرولة على جانبي الشارع : ألن يجد في هذه الآلاف واحدا يصغي اليه ؟ ولكن الجموع تسرع دون أن تلاحظه أو تلاحظ وحشته . . . وحشة هائلة ، لا حدود لها . لو أن صدر ايونا انفجر ، وسالت منه الوحشة فربما اغرقت الدنيا كلها ، ومع ذلك

لا أحد يراها . لقد استطاعت أن تختبىء فى صدفة ضئيلة فلن تُرى حتى فى وضح النهار . . .

ويلمح ايونا بوابا يحمل قرطاسا فينوى ان يتحدث اليه . ويسأله :

— كم الساعة الآن يا ولدى ؟

— التاسعة . . . لماذا تقف هنا ؟ امش !

يتحرك ايونا عدة أمتار ، ثم ينحنى متقوسا ، ويستسلم للوحشة . . . ويرى انه لا فائدة بعد من مخاطبة الناس . ولكن ما ان تمر بضع دقائق حتى يعتدل ، وينفض رأسه كأنما أحس بوخزة ألم حادة ، ويشد اللجام . . . لم يعد قادرا على التحمل .

ويقول لنفسه : «الى البيت ! الى البيت !»

وكأنما فهمت الفرس أفكاره فتبدأ فى الركض بخبب . وبعد حوالى ساعة ونصف يكون ايونا جالسا بجوار فرن كبير قذر . وفوق الفرن ، وعلى الارض ، وعلى الأرائك يتمدد اناس يشخرون . والجو مكتوم خانق . . . يتطلع ايونا الى النائمين ويحك جلده ويأسف لعودته المبكرة الى البيت . . .

ويقول لنفسه : «لم اكسب حتى حق الشعير . . ولهذا أشعر بالوحشة . الرجل الذى يعرف عمله . . الذى هو نفسه شبعان وفرسه شبعى ، هو دائما مطمئن البال . . .»

فى احدى الزوايا ينهض حوذى شاب ، ويزحر بصوت ناعس ، ويمد يديه الى الدلو .

فيسأله أيونا :

— أردت ان تشرب ؟

— كما ترى !

— طيب . . بالهنا والشفا . . أما انا يا أخى فقد مات ابنى . . هل سمعت ؟ هذا الاسبوع ، فى المستشفى . . . حكاية !

ويتطلع ايونا ليرى اى تأثير تركته كلماته ، ولكنه لا يرى شيئا . فقد تغطى الحوذى الشاب حتى رأسه وغط فى النوم . ويتنهد العجوز ويحك جلده . . . فمثلما رغب الحوذى الشاب فى الشرب يرغب هو فى الحديث . عما قريب يمر اسبوع منذ أن مات ابنه ، بينما لم يتمكن حتى الآن من الحديث عن ذلك مع أحد كما يجب . . . ضرورى ان يتحدث بوضوح ، على مهل . . . ينبغى أن يروى كيف مرض ابنه ، وكيف تعذب ، وماذا قال قبل وفاته ، وكيف مات . . . ينبغى أن يصف جنازته وذهابه الى المستشفى ليتسلم ثياب المرحوم . وفى القرية بقيت ابنته أنيسيا . . . ينبغى أن يتحدث عنها ايضا . . . وعموما ، فما اكثر ما يستطيع أن يرويه الآن ! ولا بد أن يتأوه السامع ويتنهد ، ويرثى . . . والأفضل ان يتحدث مع النساء . فهؤلاء وان كنَّ حمقاوات ، يعولن من كلمتين .

ويقول ايونا لنفسه : «فلأذهب لأتفقد الفرس . . . أما النوم فبعدين . . سأشبع نوما . .»

يرتدى ملابسه ويذهب الى الاصطبل حيث تقف فرسه . ويفكر فى الشعير ، والدريس والجو . . . فعندما يكون وحده لا يستطيع ان يفكر فى ابنه . . . يستطيع ان يتحدث عنه مع أحد ما ، أما ان يفكر فيه ويرسم لنفسه صورته فشىء رهيب لا يطاق . . .

ويسأل ايونا فرسه عندما يرى عينيها اللبراقتين :

ـــ تمضغين ؟ حسنا ، امضغى ، امضغى . . . ما دمنا لم نكسب حق الشعير فسنأكل الدريس . . . نعم . . أنا كبرت على السياقة . . . كان المفروض أن يسوق ابنى لا أنا . . . كان حوذيا أصيلا . . . لو أنه فقط عاش . . .

ويصمت ايونا بعض الوقت ثم يواصل :

ـــ هكذا ياا أختى الفرس . . لم يعد كوزما ايونيتش موجودا . . . رحل عنا . . . فجأة مات ، خسارة . . فلنفرض مثلا ان عندك مهرا ، وأنت أم لهذا المهر . ولنفرض ان هذا المهر رحل فجأة . . . أليس مؤسفا ؟

وتمضغ الفرس وتنصت وتزفر على يدى صاحبها . .

ويندمج ايونا فيحكى لها كل شىء . . .

١٨٨٦

المُلقن

ذات صباح رائع جرى دفن المساعد الاعتبارى كيريل ايفانوفتش فافيلونوف ، الذى توفى من جراء مرضين جد منتشرين فى بلادنا : الزوجة الشريرة ، وادمان الخمر . وعندما تحرك موكب الجنازة من الكنيسة الى المقابر ، استقل أحد زملاء المتوفى ، المدعو بوبلافسكى ، عربة وانطلق الى صديقه جريجورى بتروفتش زابويكين ، وهو رجل شاب ولكنه مشهور الى حد كبير . وزابويكين ، كما يعرف كثير من القراء ، رجل ذو موهبة نادرة فى ارتجال خطب الزفاف والمناسبات اليوبيلية والتأبين . وبوسعه ان يخطب فى أى وقت : اثر الاستيقاظ مباشرة ، وعلى الريق ، وفى حالة السكر الفظيع ، وأثناء الحمى . وينساب كلامه ناعما ، سلسا كما يسيل الماء من ميزاب ، وغزيرا . وفى قاموسه الخطابى من كلمات الرثاء اكثر مما فى أية حانة من صراصير. وخطبه دائما فصيحة ، طويلة حتى انهم احيانا ، وخاصة فى أعراس التجار ، يضطرون للجوء الى الشرطة لايقافه عن الكلام .

وقال بوبلافسكى عندما وجده فى البيت :

— اننى اقصدك يا أخى ! البس بسرعة وهيا بنا .

لقد توفى أحد زملائنا ، والآن نشيعه الى العالم الآخر ، ومطلوب يا أخى ان تقول فى وداعه بعض الهراء . . . الأمل كله فيك . لو كان المتوفى من صغار الموظفين لما أزعجناك ، ولكنه سكرتير . . . يعنى من أعمدة الادارة . ومن غير اللائق أن ندفن هذا الرأس الكبير بدون خطبة .

فقال زابوبكين متثائبا :

— آه ، السكرتير ! أهو ذلك السكير ؟

— نعم ، السكير . ستكون هناك شطائر ومزّات . . . وستمنح أجرة العربة . هيا يا عزيزى ! فلتلق على قبره خطبة عصماء أفصح من خطب شيشرون ، وستلقى كل الشكر !

وافق زابوبكين عن طيب خاطر . نكش شعره ، وأضفى على وجهه سيماء الكآبة وخرج مع بوبلافسكى .

وقال وهما يجلسان فى العربة :

— أعرف سكرتيركم هذا . قَلَّ أن تجد أفاقا وشيطانا مثله ، عليه الرحمة .

— لا يصح يا جريشا أن تشتم الموتى .

— أنت محق ، طبعـــا aut mortuis nihil bene* ولكنه مع ذلك محتال .

لحق الصديقان بركب الجنازة وانضما اليه . وكانـــوا

---

* تعبير محرف عن اللاتينية ومعناه هنا «لا يذكر الموتى الا بسوء» وأصله فى اللاتينية de mortuis aut bene aut nihil ومعناه «اما ان تذكر الموتى بالحسنى او لا تذكرهم بشىء» . **المعرب** .

يحملون المتوفى ويسيرون به ببطء فتمكن الصديقان قبل بلوغ المقابر من أن يعرجا ثلاث مرات على الحانات ويشربا فى ذكرى المرحوم .

واقيمت صلاة الميت فى المقابر . وجريا على العادة بكت زوجته وأختها وحماته كثيرا . وعندما انزل التابوت الى القبر صاحت زوجته «ادفنونى معه !» لكنها لم تنزل الى القبر وراء زوجها ربما لأنها تذكرت المعاش . وانتظر زابويكين حتى عمّ الهدوء ، ثم تقدم الى الأمام ، وطاف على الحاضرين بنظراته ، وقال :

— هل نصدق سمعنا وأبصارنا ؟ أليس حلما رهيبا هذا التابوت وهذه الأوجه الباكية ، وهذا الأنين والنحيب ؟ يا للحسرة ، هذا ليس حلما ، وأبصارنا لا تخدعنا ! ان ذلك الذى رأيناه منذ وقت قريب مكتمل الصحة ، فى أوج شبابه وبهائه ونضارته ، ذلك الذى رأيناه منذ وقت قريب يضج ، كالنحلة ، عسله فى الخلية العامة لبناء الدولة ، ذلك الذى . . . هو بعينه أصبح الآن ترابا ، أصبح سرابا ماديا . لقد أطبقت عليه قبضة الموت الذى لا يرحم عندما كان ، رغم عمره المتأخر ، مفعما بالقوة المتأججة والأحلام المشرقة . فيالها من خسارة لا تعوض ! من ذا الذى يعوضنا عنه ؟ لدينا الكثير من الموظفين الممتازين ، ولكن بروكوفى أوسيبوفتش كان الوحيد بينهم . لقد كان مخلصا من صميم قلبه لواجبه الشريف ، ولم يرحم نفسه ، لم ينم الليل ، وكان مثلا للتفانى والنزاهة . . . كم كان يحتقر اولئك الذين يحاولون رشوته على حساب المصلحة العامة ، اولئك الذين حاولوا بخيرات الحياة المغرية دفعه الى خيانة

واجبه ! نعم ، لقد رأينا بأعيننا كيف كان بروكوفى أوسيبوفتش يوزع راتبه الصغير على رفاقه المعوزين ، وها قد سمعتم الآن عويل الأرامل واليتامى الذين كانوا يعيشون على حسناته . لقد كان مخلصا لواجبه الوظيفى ولأعمال الخير فلم يذق ملذات الدنيا ، بل حرم نفسه حتى من سعادة الحياة العائلية . فأنتم تعرفون انه ظل عازبا حتى آخر ايام عمره ! ومن ذا الذى يعوضنا عنه رفيقا ؟ كأنى أرى الآن وجهه الحليق البشوش الذى يهل علينا بابتسامة طيبة ، وكأنى أسمع الآن صوته الناعم الودود الرقيق . طيب الله ثراك يا بروكوفى أوسيبوفتش ! فلتنعم بالسكينة أيها الكادح الشريف النبيل !

ومضى زابويكين يخطب بينما أخذ المستمعون يتوشوشون . أعجب الجميع بالخطبة ، التى استدرت بعض الدموع ، ولكن الكثير فيها بدا لهم غريبا . فأولا : لم يكن مفهوما لماذا دعا الخطيب المرحوم باسم بروكوفى أوسيبوفتش بينما كان اسمه كيريل ايفانوفتش . وثانيا : كان الجميع يعرفون ان المرحوم ظل طوال حياته يصارع زوجته الشرعية ، وبالتالى فلا يمكن ان يكون عازبا . وثالثا : فقد كانت لديه لحية غزيرة حمراء ، ولم يحلق ذقنه قط ، ولذا فلم يكن مفهوما لماذا وصف الخطيب وجهه بالحليق . أبدى السامعون استغرابهم وتبادلوا النظرات ، وهزوا أكتافهم .

ومضى الخطيب يقول بحماس وهو ينظر فى القبر :

— يا بروكوفى أوسيبوفتش ! لم يكن وجهك جميلا ، بل حتى كان قبيحا ، متجهما صارما ، ولكننا كنا نعرف جميعا ان هناك ، تحت هذه القشرة الظاهرة ، ينبض قلب شريف ودود !

وسرعان ما بدأ السامعون يلاحظون شيئا غريبا على الخطيب نفسه . فقد ثبت بصره على نقطة واحدة ، ثم أخذ يتململ بقلق ، وراح يهز كتفيه . وفجأة صمت ، وفغر فاه بدهشة ، والتفت الى بوبلافسكى .

وقال وهو ينظر برعب :

— اسمع ، انه حىّ !

— من الحىّ ؟

— بروكوفى أوسيبوفتش ! ها هو يقف هناك بجوار التمثال !

— انه لم يمت أصلا ! كيريل ايفانيتش هو الذى مات !

— ألم تقل لى أن سكرتيركم مات ؟

— كيريل ايفانيتش كان سكرتّيرا . يا لك من مضحك ، لقد خلطت الأمور ! صحيح أن بروكوفى اوسيبوفتش كان سكرتيرا ولكنه نقل منذ عامين الى القسم الثانى رئيس قلم .

— آه ، الشيطان وحده يفهمكم !

— وما لك توقفت ، أكمل ، لا تحرجنا !

والتفت زابوبكين نحو القبر وواصل حديثه المنقطع بنفس البلاغة السابقة . وبالفعل كان بروكوفى اوسيبوفتش ، وهو موظف عجوز ، بوجه حليق ، يقف بجوار التمثال . وكان يتطلع الى الخطيب وقد قطب حاجبيه بغضب .

وضحك الموظفون اثناء عودتهم من المقابر مع زابوبكين :

— ما الذى دهاك ؟ تدفن شخصا حيا !

ودمدم بروكوفى اوسيبوفتش :

— عيب عليك ايها الشاب ! ربما كانت خطبتك

مناسبة للمرحوم ، ولكنها محض سخرية بالنسبة لشخص حى ! ما هذا الذى قلته ؟ متفان ، نزيه ، لا يقبض رشاوى ! هذا الكلام عن شخص حى ليس الا سخرية ! كما ان احدا لم يطلب منك يا سيدى أن تفيض فى وصف وجهى . غير جميل ، قبيح ، فليكن ، ولكن ما الداعى لعرض وجهى فرجة امام الجميع ؟ هذا مهين !

١٨٨٦

الفهرس

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلي سابقاً)

